الواقعية كأساس لمعرفة العالم

أندرو ساير

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

قد يوحي اسم "الواقعية" بأنها فلسفة تدّعي ، على عكس جميع الفقهاء الآخرين ، امتلاك رؤية "واقعية" للعالم ، و وصولًا متميزًا إلى حقيقة مطلقة عنه . حسنًا، معذرةً لكن هذا ليس ما تدّعيه الفلسفة الواقعية. في الواقع ، ينبغي أن يجعلنا مبدأها الأساسي حذرين من هذه الرؤى التبسيطية للمعرفة والحقيقة . الفكرة الأساسية للفلسفة الواقعية هي أن العالم هو ، مهما كان ، مستقلًا إلى حد كبير عما يعتقده المراقبون عنه ، وليس مجرد نتاج للعقل البشري . كان الناس يعتقدون أن العالم مسطح ، ولكن عندما بدأوا يعتقدون أنه كروي ، لم نعد نتخيل أن الأرض نفسها قد تغيرت شكلها أيضًا . لم يتأثر شكلها بأفكارنا عنها . في الوقت نفسه ، تُبنى أفكارنا عن العالم دائمًا من خلال طرق رؤية مختلفة - مخططات إدراكية ، ومفاهيم ، وخطابات . لا يمكننا الخروج منها لنرى العالم كما هو مباشرةً ، لأننا نحتاج إلى هذه المخططات وما إلى ذلك لنرى ونفكر .

لذا، **فإن العالم موجود إلى حد كبير بشكل مستقل عن معرفتنا به ، لكن أوصافنا له ليست كذلك ، لأنها تعتمد بوضوح على المعرفة المتاحة** . تُبنى رواياتنا عن العالم دائمًا من خلال الخطابات المتاحة ، وقد تختلف هذه الخطابات في قدرتها على فهمه ، كما حدث في حالة الخطابات المختلفة حول شكل الأرض . هناك تحذير واضح يجب توضيحه هنا ، يتعلق بحقيقة أن المعرفة نفسها جزء من العالم الاجتماعي، لكنني سأتطرق إليه بعد قليل . معظم الناس - بمن فيهم معظم الباحثين - واقعيون في بعض الأحيان على الأقل ، مع أن بعض الباحثين قد يترددون في الاعتراف بذلك ويحاولون اتباع مناهج أخرى . وكما هو الحال مع جميع "المذاهب" في هذا الكتاب ، يمكن تعريف الواقعية من خلال ما تعارضه بقدر ما تُؤكده. يفشل غير الواقعيين في التمييز بين العالم ومعرفتنا به ، وبالتالي ينتهي بهم الأمر إلى تخيل إما أن الخطابات أو أنواع المعرفة هي انعكاسات بسيطة له (الوضعية) ، أو على العكس من ذلك ، أن العالم نتاج معرفتنا (المثالية).

كلا الرأيين يجعل من الصعب فهم كيف يمكن أن تكون المعرفة عرضة للخطأ . بالنسبة للواقعيين ، تشير قابلية المعرفة للخطأ إلى أن العالم ليس مجرد ما نرغب في تخيله . عندما نرتكب أخطاء ، أو نتفاجأ بالأحداث ، أو نصطدم بالأشياء ، فإننا نشعر بـ"اختلاف" العالم ، واستقلاله عن أفكارنا عنه . إن آثار هذا الأمر ذات حدين : فمن ناحية ، فإن هذا الاختلاف أو استقلالية العالم يعني أن مهمة تطوير أفكار قادرة على فهمه ستكون صعبة بطبيعتها ؛ ومن ناحية أخرى ، فإن حقيقة أننا غالبًا ما ندرك متى نخطئ ، من خلال تلقي بعض ردود الفعل السلبية من العالم ، تعني أن التمييز بين خصائص العالم المختلفة ليس مستحيلًا .

إن حقيقة أننا نستطيع القيام بالعديد من الأشياء بنجاح من خلال تدخلاتنا العملية في العالم تشير إلى أن المعرفة التي تُغذي هذه التدخلات تتمتع على الأقل ببعض "الكفاية العملية" . كانت نظرية الأرض المسطحة كافية عمليًا للعديد من الأنشطة ، على الرغم من قد نرغب الآن في القول إنه كان غير صحيح. نظرية الأرض الكروية أكثر ملاءمة من الناحية العملية من هذا ، إذ تُمكّننا من القيام بأشياء جديدة مثل وضع الأقمار الصناعية في المدار ، لكنها ليست مثالية (يبدو أن العالم ليس كرويًا تمامًا) . قد يجد العديد من القراء هذه الفكرة الواقعية الأساسية لاستقلال العالم عن تفكيرنا عنه واضحة جدًا بحيث لا تستحق الجهد المبذول ، وسيقبلها معظم مؤيدي "المذاهب" الأخرى عند الضغط عليهم ، على الرغم من أنهم غالبًا ما ينسونها، أو يخلطون العالم بمفاهيمنا عنه . ومع ذلك ، فقد حان الوقت لمعالجة هذا التحذير .

ماذا عن الظواهر الاجتماعية ؟ أليست "مبنية اجتماعيًا" ، وبالتالي تعتمد على طرق تفكيرنا ؟ نعم ، إنها كذلك ، ولكن ليس بطريقة تتعارض مع اقتراحنا الواقعي الأساسي . حزب المحافظين البريطاني هو بناء اجتماعي ، لكنه ليس بنائي الاجتماعي ؛ ورغم أنني قد "أُفسّره" - لا أنشئه - بطرق مختلفة ، فإنه سيوجد حتى لو لم أُفسّره إطلاقًا . علم الجغرافيا هو بناء اجتماعي ، نتاج تفاعلات العديد من الأكاديميين على مدى فترات طويلة من الزمن . لولا عملية البناء الاجتماعي هذه ، لما وُجد كموضوع . لكن هذه تبدو حالة أكثر صعوبة : من المؤكد أن هذا العلم هو بناءنا ، أي البناء الاجتماعي لأشخاص مثلنا . لكن إليكم توضيحًا للنقطة الواقعية الأساسية : قلتُ إن العالم يمكن أن يوجد بشكل مستقل إلى حد كبير عن أي مراقبين محددين . أنتَ تدرس الجغرافيا ، وكتابتي لهذه المقالة لا تُحدث فرقًا يُذكر في تخصص الجغرافيا ، لأنها شيءٌ مُشيّد بالفعل ، على الرغم من استمرار إعادة إنتاجه وتحويله من قِبل كثيرين آخرين.

إذا لم نُرد اختزال البناء الاجتماعي إلى مجرد تفكيرٍ تمنيّ - فالعالم الاجتماعي هو - مهما افترضنا أو بنيناه - فعلينا أن نضع في الحسبان ثلاث نقاط . أولًا، علينا أن نسأل من يقوم بالبناء ؟ في معظم الحالات ، ليس الجغرافي أو عالم الاجتماع هو من يقوم ببعض "التفسير" أو الملاحظة والتفسير . حتى لو كان لبحثنا بعض التأثير على الظواهر الاجتماعية قيد الدراسة - ربما نتيجةً لتأثير مقابلاتنا على من أجرينا معهم المقابلات - فإن التغييرات عادةً ما تكون صغيرة في أي وقت ، وتفترض وجود شيء مستقل عن الباحث يمكن تغييره، مما يؤكد النقطة الواقعية الأساسية. ثانيًا، علينا أن نفكر في البناء الاجتماعي كعملية مستمرة . بمجرد بناء الأشياء ، فإنها تكتسب درجة من الاستقلال عن منشئيها وعن المراقبين اللاحقين. ثالثًا، علينا أن نتذكر أن محاولات البناء تستخدم دائمًا مواد - ليس فقط المواد المادية في هذه الحالة ، مثل الخرسانة، بل أيضًا مواد فكرية مثل معتقدات الناس وعاداتهم - وتنجح المحاولات أو تفشل وفقًا لكيفية استخدامها للخصائص الخاصة لتلك المواد.

قد أتخيل نفسي رائد أعمال لامعًا ، لكنني أفشل في إنشاء شركة ناجحة لأن محاولاتي في بناء شركة لم تأخذ في الحسبان خصائص أشكال التنظيم الاجتماعي والأنشطة التي كنت أحاول تنظيمها . ربما أكون قد قللت من تقدير المهارات اللازمة ، أو ربما أكون غير قادر على دفع أجور كافية للعمال لتشجيعهم على العمل لدي ، أو ربما أفشل في تحفيز أي طلب على المنتج. في أي وقت محدد، توجد هذه الخصائص ، بشكل مستقل إلى حد كبير عن كيفية تفكيري فيها . فالبناءات الاجتماعية ، مثل المعرفة التي تُنمّيها ، قابلة للخطأ. وحتى عندما تنجح ، فإنها عادةً ما تكون مختلفة عما قصده مؤلفوها أو منشئوها .

هذا الكتاب بناء اجتماعي ، لكنه قد يكون مختلفًا عما أراده المحررون . لذا ، نعم ، بالطبع الظواهر الاجتماعية مبنية اجتماعيًا ، ولكن إذا أردنا تجنب تخيل أن هذا يُمثل نوعًا من التمنيات الجماعية الناجحة تلقائيًا ، وإذا أردنا تجنب الخلط بين بناءات الآخرين وتفسيراتنا الخاصة لها ، فعلينا أن نتذكر النقطة الواقعية البسيطة حول استقلالية الأشياء (بما في ذلك أفكار الآخرين) من خلال أفكارنا عنها . وهذا ما يزال يسمح لنا بالاعتراف بأن الأفكار أو الخطابات ، وطرق التفكير ، بالغة الأهمية والتأثير في تشكيل المجتمعات وجغرافيتها . على سبيل المثال ، كان لخطابات التفوق العرقي آثار كبيرة في تشكيل العديد من البلدان ، وإضفاء الشرعية على استيلاء المستعمرين على أراضي السكان الأصليين ، والهيمنة عليهم . تُقيد أيديولوجيات النوع الاجتماعي حركة المرأة في المجال العام. أثّرت التحولات الأخيرة في الخطابات السياسية، من التركيز على دعم الدولة إلى ريادة الأعمال الفردية، على السياسة الإقليمية.

كان لجميع هذه الخطابات آثارا، ولكن ليس فقط الآثار التي قصدتها أو استوعبتها : بل إنها تميل أيضًا إلى إنتاج عواقب غير مقصودة ، بما في ذلك المقاومة . هذه القوة التي تتمتع بها الخطابات أمرٌ يُشدد

عليه ما بعد البنيويين أيضًا ، لكنهم غالبًا ما يقعون في شكلٍ من أشكال المثالية التي يبدو فيها أنه يمكن بناء أي شيء على أساس أي خطاب ، كما لو أن جميع الخطابات معصومة من الخطأ ، وبالتالي فهي كلية القدرة . يتشكل الناس بالفعل من خلال الخطابات ، ولكن كما هو الحال مع أي شكل من أشكال البناء الاجتماعي ، فإن كيفية تشكلهم تعتمد على خصائصهم - خصائص توجد في أي وقتٍ معين بشكلٍ مستقل عن القوى المؤثرة عليهم أو سابقة عليها .

إذا بدا ذلك صعبًا ، ففكر في الأشياء العادية التي يمكن تشكيلها . الخشب أسهل في التشكيل بطرقٍ دائمة من الهواء لأنه يوفر أشكالًا معينة من المقاومة وله أنواعٌ معينة من القابلية للتأثر . الناس ليسوا مرنين إلى ما لا نهاية ، وبقدر ما يمكن تشكيلهم، فهذا يفترض مسبقًا أن لديهم خصائص معينة - قوىً ومقاوماتٍ معينة . إذا قلنا ببساطة إنها "مُصنَّعة اجتماعيًا" ، فسنكون عُرضة لسوء فهم كيف أن تشكيل الناس والمؤسسات في الزمن (ت) مُقيَّد ومُمكَّن بخصائصها ، التي توجد إلى حد كبير بشكل مستقل عن التشكيل الحالي ولكنها تأثرت بقوى اجتماعية في زمن سابق (ت-1).

ومثل ما بعد البنيويين ، يجب أن نُدهش من التنوع الثقافي الهائل للمجتمعات البشرية - وهو أمر ينبغي أن يكون واضحًا بشكل خاص للجغرافيين . ولكن ليس أي شيء يُظهر هذا التنوع ؛ فثاني أكسيد الكبريت الروسي هو نفسه ثاني أكسيد الكبريت البريطاني لأنه يفتقر إلى الخصائص التي تُمكِّنه من اتخاذ أشكال ثقافية يمتلكها الناس (وربما بعض الحيوانات العليا) . **لا تُنتج الثقافة التنوع من تلقاء نفسها ، بل تتطلب كائنات قادرة على التأثر ثقافيًا** . يميل ما بعد البنيويين إلى تجاهل هذا ، ولكنهم ، تحت تأثير نوع من الإمبريالية الاجتماعية أو الثقافية ، يحاولون اختزال كل شيء في الثقافة والخطاب . الجغرافيا ، كموضوع مادي جيد ، يأخذ على محمل الجد خصائص الناس المادية والثقافية واحتياجاتهم ، ينبغي أن تكون قادرة على إدراك هذه الإمبريالية ومقاومتها . عندما يقول أحدهم إن شيئًا ما "مُصمم اجتماعيًا" ، اسأل دائمًا "بواسطة من ، وبماذا ، وبأي آثار ؟". هذه، إذًا ، هي الأفكار الأساسية للواقعية .

لننتقل الآن إلى أفكار أكثر تحديدًا لها آثار على كيفية دراستنا للظواهر الجغرافية وغيرها . يتعلق الأول بالسببية . كان هناك جدل طويل في الجغرافيا ، استمر معظم القرن العشرين ، بين مؤيدي وجهات النظر "الشخصية" و"النظرية" للموضوع . جادل مؤيدو الأول بأن موضوعات مثل الجغرافيا والتاريخ لا يمكنها دراسة سوى أحداث وأماكن فريدة ، وبالتالي فهي تختلف عن العلوم في مقاومتها للتعميم . على النقيض من ذلك ، اعتقدت المدرسة النموثية أن هذه التخصصات يمكنها بالفعل إيجاد انتظامات وقوانين للسلوك ، وبالتالي تُصبح علومًا قائمة بذاتها ، إذا ما بحثت عنها فقط .

رأى الجغرافيون النموثيون أن النهج الإيديوغرافي غير علمي ، ويفتقر إلى النظرية أو المنهجية ، ويُنتج نتائج فريدة تفتقر إلى التطبيق الأوسع ، بحيث لا تُعدّ كل دراسة بحثية أكثر من كتاب آخر على الرف ، بل هي في الواقع ليست أكثر من مجرد رأي . يُفترض أن النهج النموثي سيُمكّن الجغرافيين تدريجيًا من تجميع المعرفة بقوانين السلوك ، من خلال اختبار الفرضيات المتعلقة بالانتظامات بشكل منهجي . وكان من المأمول أن يُمكّنهم ذلك من التعميم وبناء علم جغرافي يُمكن من خلاله التفسير والتنبؤ بالرجوع إلى النظريات . وقد تجلى ذلك بوضوح في المناهج الوضعية للثورة الكمية.

ما ظهر في العقدين أو الثلاثة عقود الماضية في الجغرافيا يختلف عن هذين النموذجين ، وتُوضح الواقعية سبب ذلك . يُجادل الواقعيون من أجل مفهوم مختلف للعلم ، مفهوم لا يعتمد على اكتشاف الانتظامات التجريبية . لم تُسفر المحاولات المبكرة لإيجاد الانتظامات إلا عن انتظامات تقريبية ومؤقتة . فعلى سبيل المثال ، يُعد ميل التفاعل المكاني إلى الانخفاض مع المسافة تقريبيًا وغير مستقر . فالانتظام نفسه متغير مكانيًا وزمانيًا . والأهم من ذلك ، أنها بحد ذاتها ليست مثيرة للاهتمام . بل تصبح أكثر إثارة للاهتمام عندما يركز

المرء على الاختلافات النوعية بين مختلف أنواع التفاعل ، وأغراضها وآثارها ، وعلى أنواع الأشياء التي تُنتج تلك الانتظامات . لقد كانت هناك بالتأكيد زيادة كبيرة في التنظير الواعي للظواهر الجغرافية ، ولكن معظمها يدور حول كيفية تصورها بدلاً من مجرد وضع فرضيات حول الانتظامات أو الأنماط بين الأحداث . هناك أمور يُعمّم عليها الجغرافيون وغيرهم ، لكنهم يتوقعون أن تختلف إلى حد ما عبر المكان والزمان . على سبيل المثال ، في الجغرافيا الاقتصادية ، كان هناك اهتمام كبير بكيفية تصور العولمة : فقد قيّم الباحثون مفاهيم مختلفة للعولمة والظواهر المرتبطة بها مثل وسائل الإعلام العالمية ، والتدفقات الثقافية ، و"الليبرالية الجديدة".

إنهم يدركون أنه على الرغم من انتشار هذه الظواهر، إلا أنه من غير المرجح أن تكون ثابتة تمامًا عبر الزمان والمكان ، بل ستتخذ أشكالًا مختلفة . من المؤكد وجود أنماط أو انتظامات مثيرة للاهتمام ، على الأقل تقريبية ومؤقتة ، ولكن كان على الباحثين أيضًا أن يأخذوا على محمل الجد أحداثًا وأشياء فريدة معينة ، مثل التغيرات في سياسات التجارة العالمية أو تغييرات الحكومات . في كلتا الحالتين ، سواء كانوا يتعاملون مع أنماط مشتركة أو أحداث فريدة - فهم أكثر اهتمامًا بطبيعة الظواهر، والآليات التي تُنتجها وتأثيراتها ، من اهتمامهم بما إذا كانت تُشكل انتظامات أم لا .

الأحداث الفريدة ، لا تقل عن الأحداث المشتركة ، تُنتج أو تُسببها أشياء ، ولها آثار حقيقية . في كلتا الحالتين ، نحتاج إلى معرفة كيفية حدوث ذلك ، وإيجاد الانتظامات ليس ضروريًا تمامًا لذلك . بعبارة أخرى، **فإن الهوس بإثبات مثل هذه الانتظامات - وهو أحد سمات الوضعية - ليس ضروريًا لتفسير الأشياء** . **بـ "السبب" نعني ببساطة ما يُنتج (أو ربما يُعيق) التغيير**. السبب ليس ، كما تفترض الوضعية ، انتظامًا ثابتًا بين حدث وآخر ، بحيث يميل المرء إلى القول : "إذا كان أ ، فـ ب" . السبب هو آلية تُنتج التغيير. جميع الأشياء - بما في ذلك الأشخاص والمؤسسات والخطابات - لها "قوى سببية" مُحددة ، أي أشياء تستطيع القيام بها ، مثل قدرة الشخص على التنفس أو الكلام . كما أن لديها "استعدادات سببية" مُحددة ، مثل استعداد الفرد لتغيرات مُعينة . وبالتالي ، يكون الناس عُرضة للتكييف الثقافي وضغط الأقران ، بينما لا تكون كتل الصخور كذلك .

تُكتسب العديد من هذه القوى والاستعدادات من خلال التنشئة الاجتماعية ، وبينما يحتاج بعضها إلى مُمارسة أو أداء مُتكرر للاستمرار ، فإن بعضها الآخر قد يستمر دون مُمارسة لفترات طويلة ، بل قد لا يُمارس بعضها الآخر أبدًا . وهكذا ، ولحسن الحظ ، نادرًا ما يمارس معظمنا أو يطور قدراته على العنف . ويعتمد تفعيل هذه القدرات أو القابليات على ظروف يكون وجودها "مشروطًا" ، أي ليس "مرتبطًا" بل "ليس ضروريًا ولا مستحيلًا" . هذه **الظروف، التي تُشكل سياق أي فعل معين ، لها خصائصها الخاصة** القوى والاستعدادات السببية . على سبيل المثال ، يمكنك إنهاء دراستك هنا والآن ، ولكن قيامك بذلك يعتمد على ظروف عديدة ، قد تكون موجودة أو غير موجودة .

علاوة على ذلك ، عندما تُفعّل قوة أو استعداد سببي ، فإن العواقب الخاصة تعتمد على السياق ، أي على وجود الظروف التي تُفعّل فيها. على سبيل المثال ، يُعد تكوين أسر جديدة عنصرًا مهمًا في عمل أسواق الإسكان ، كما هو الحال عندما يغادر الأطفال المنزل أو يبدأ الناس في العيش معًا أو الزواج ، أو الانفصال أو الطلاق . لكن نجاحهم في الحصول على مسكن يعتمد على مخزون المساكن ، وعلى ما هو متاح، وعلى السعر. وبالتالي ، فإن عواقب الأفعال "تعتمد على السياق" ، بحيث **قد يُنتج الفعل نفسه نتائج مختلفة في سياقات مختلفة.** ويعني ذلك أنه لا ينبغي لنا أن نفترض **أن السبب نفسه سيؤدي دائمًا إلى النتائج نفسها** . ففي كثير من الأحيان ، تختلف النتائج وفقًا للسياق ، مما يُنتج عنه عدم انتظام . لا تحدث الانتظامات الثابتة والدقيقة إلا عندما تكون العمليات والسياقات مستقرة ، ومن الجدير بالذكر أنه في العلوم الطبيعية ، لا تنشأ

هذه الانتظامات عادةً إلا في ظل ظروف خاضعة للتحكم التجريبي ، وهي ظروف غير متوفرة في العلوم الاجتماعية.

ومع ذلك ، فإن غياب هذه الانتظامات لا يمنعنا من تفسير ما يحدث . ما نحتاجه لفهم آلية عمل الآليات السببية هو تصور دقيق للأشياء المعنية لتحديد قدراتها ، وكذلك سياقاتها ، إلى جانب تحليل نوعي في المقام الأول لكيفية عملها ، إن وُجدت . **قد يكون التحليل الكمي مفيدًا أيضًا ، لكن لغة الرياضيات تفتقر إلى أي مفهوم للسببية ، أو للإجبار، أو الإنتاج ، أو للتغيير النوعي، أو للتشكيل** . الأسئلة المهمة لفهم السببية هي تلك التي تسأل : ما الذي يُمكّن هذا الشيء(الشخص / المجموعة / المؤسسة / الهيكل / العملية / الخطاب) من القيام بهذا الشيء؟ ما الذي يُنتجه التحضر من علاقات وتجارب اجتماعية جديدة ؟ ما الذي يُمكّن الشركات متعددة الجنسيات وسياقاتها من تغيير جغرافياتها الداخلية ؟

هناك أمرٌ آخر بالغ الأهمية في الظواهر الاجتماعية ، بالإضافة إلى كيفية حدوثها وما هي قادرة على إحداثه ، يتعلق هذا الأمر بالمعنى . هنا ، يختلف الوضع في الجغرافيا البشرية عنه في الجغرافيا الطبيعية . إذ يتعين على الأخيرة ، عند مواجهة أشياء مثل الصخور والتربة والمنحدرات ، تطوير مجموعة من المفاهيم لتمييزها - مفاهيم مثل "الجليد المحيط" و"الركام" و"التشرنوزيم" . تساعد هذه المفاهيم الجغرافيين الطبيعيين في الوقت نفسه على فهم كلٍّ من العالم الطبيعي وبعضهم البعض من خلال مجموعة مشتركة من المعاني . هذه المعاني خارجية بالنسبة لأشياءهم .

ما نسميه "الركام" ليس له خطاب عن نفسه ؛ ليس له لغته الخاصة وفهمه الذاتي . لكن الجغرافيين البشريين يهتمون في المقام الأول بالأشياء التي تمتلك مثل هذه المفاهيم . فالمفاهيم والمعاني في المجتمع ليست مجرد وصف خارجي للأشخاص والمؤسسات ، بل هي "مكونة" لماهيتها . إن معنى شهادة في الجغرافيا أو ندوة أو زواج أو جنس ليس مجرد معنى خارجي بالنسبة لموضوعه ، كما هو مفهوم "الركام" بالنسبة لموضوعه ، بل هو معنى داخلي ؛ فطبيعة هذه الأشياء تعتمد على معناها للأشخاص المعنيين بها ، لأنهم يعيدون إنتاجها ويحولونها بناءً على فهمهم لها . قد يكون حشد من الناس يسيرون في شارع في الاتجاه نفسه موكب جنازة ، أو مظاهرة سياسية ، أو كرنفال ، أو مشجعي كرة قدم في طريقهم إلى مباراة . وبينما قد تكون هناك اختلافات دقيقة بين هذه الأشياء في المظهر والفعل ، فإن ما يميز الحدث كشيء واحد دون غيره هو فهم الفاعلين لما يفعلونه ، وما هي نواياهم . **إذا لم نفهم هذه الأشياء ، فقد نستمر في مراقبة السلوك الخارجي إلى الأبد ولن نعرف ما الذي يحدث.**

هذا أمرٌ لا تُدركه الوضعية ، مع أن فهم الوضعيين للعالم الاجتماعي وقدرتهم على العمل فيه يفترض ، دون وعي ، معرفةً بالمعاني التأسيسية للظواهر التي يرصدونها ويقيسونها . كثيرٌ من هذه المعاني مألوفٌ لدرجة أننا قد لا نلاحظها . ومع ذلك ، فهي عادةً ما تكون محددةً تاريخيًا وجغرافيًا وثقافيًا إلى حدٍّ ما ، وتحتاج إلى تحليلٍ بدلًا من عدها أمرًا مسلمًا به . هذا أمرٌ أكّد عليه الجغرافيون الإنسانيون ، لكنني وغيري من الواقعيين نجادل بأن جميع الجغرافيين البشريين وعلماء الاجتماع بحاجةٍ إلى القيام بذلك ؛ فهو ليس أمرًا يجب أن يُؤخذ على محمل الجد فقط من قِبَل المهتمين بالظواهر "الثقافية" تحديدًا ، مثل الأديان أو أنماط الحياة .

تفترض الظواهر الاقتصادية وجود تفاهمات متبادلة - مثل الأفكار المشتركة حول وظيفة وقيمة المال - حول معنى الالتزام بعقد ، أو التوظيف ، وما إلى ذلك ، وهذه الأفكار متغيرة جغرافيًا وشخصيًا . وبالتالي ، تختلف التزامات أصحاب العمل تجاه موظفيهم بين (وداخل) الرأسمالية الغربية والشرق آسيوية ، على سبيل المثال . لذا ، فإن الظواهر الاجتماعية "تعتمد على المفاهيم" ، وبعضها ، مثل الأفكار السياسية ، أو علم الجغرافيا ، مفاهيمي بشكل مباشر. وهكذا ، تختلف مسارات حياة النساء والرجال وأنماط تنقلهم اختلافًا كبيرًا من خلال السلوك القائم على معايير جنسانية حول ما يجب على النساء والرجال فعله وما لا يجب عليهم فعله

. لفهم كيفية تغير استخدامهم للمساحة الخاصة والعامة ، نحتاج إلى دراسة كيفية تغير معاني ماهية أن تكون رجلاً أو امرأة. وبغض النظر عما إذا وجدنا انتظامات أو مخالفات ، فإن الأفعال ستعتمد جزئيًا على الأقل على ما تعنيه للفاعلين .

إن الاعتراف بأن الظواهر الاجتماعية ذات معنى جوهري أو أنها تعتمد على مفهوم ، لا يعني تأييد مضمون ما يعتقده الناس . قد يتصرف الناس تجاه بعضهم البعض بناءً على سوء فهم أو فهم خاطئ (على سبيل المثال ، تخيّل أن الاختلافات بين الجنسين في أمور مثل الأعمال المنزلية والعمل المأجور تنبع من جيناتنا) ، مع أن سوء الفهم بحد ذاته نوع من الفهم من حيث أنه ذو معنى . لذا ، لفهم كيفية استخدام الرجال والنساء للمساحة بشكل مختلف ، يجب علينا بالتأكيد الانتباه إلى ما يفكرون فيه ويفترضونه حول ما ينبغي على الرجال والنساء فعله "بشكل طبيعي" ، والاستشهاد بذلك في تفسيرنا لسلوكهم ، ولكن هذا لا يعني أنه يجب علينا تأييد هذه الأفكار.

لو قبلنا أن هذه الاختلافات المكتسبة اجتماعيًا فطرية ، لكنا أسأنا فهمها . لهذا السبب ، تقف العلوم الاجتماعية ، بما في ذلك الجغرافيا البشرية ، أو تحتاج إلى أن تقف في علاقة ناقدة مع موضوع دراستها ، إذ يجب أن تكون مستعدة ليس فقط للاعتراف بالآثار الحقيقية للمفاهيم الفطرية التي يتبناها الأشخاص الذين تدرسهم ، بل لمعارضتها حيثما تبدو مبنية على أكاذيب . ولهذا السبب أيضًا ، لا أؤيد نهجًا واقعيًا فحسب ، بل نهجًا واقعيًا نقديًا . بشكل أعم ، ما فائدة دراسة المجتمع إذا فشلت في تقييم المفاهيم اليومية ، أي إذا فشلت في تقييم ما يعرفه الناس بالفعل من خلال العيش في المجتمع ؟

ذكرتُ سابقًا أن الواقعيين يُشددون على أهمية التصور في العلم - القلق بشأن كيفية تصور الأشياء التي ندرسها بدلًا من قبول التعريفات اليومية والتسرع في جمع البيانات على أمل أن نحصل على شيء ذي معنى من خلال فحص البيانات من خلال حزمة إحصائية لإيجاد بعض الانتظامات ، دون الاهتمام بما تعنيه أو تمثله . يمكننا الآن أن نرى ، كما آمل ، أن التصور مهم ليس فقط للسماح بالتحليل النوعي الضروري لتحديد القوى والاستعدادات السببية وطريقة ممارستها ، ولكن أيضًا للوصول إلى المعاني التي تحملها الأفعال والظواهر الاجتماعية الأخرى للفاعلين أنفسهم - المعاني التي تجعلهم - هذا النوع من الظواهر وليس غيرها . تذكر أن العديد من الظواهر الاجتماعية غامضة من حيث معناها للفاعلين . لذلك ، علينا أن نحاول معالجة هذه الالتباسات . هل مسيرة يوم الذكرى هذه مجرد حداد على قتلى الحرب ، أم أنها أيضًا احتفال بالعسكريين ؟ بأي طرق يتردد الناس في الأماكن التي يعيشون فيها ؟ **هل الهجرة دلالة على حرية الأقوياء أم على يأس طالبي اللجوء ؟**

أمر آخر يتعلق بالسببية والمعنى في المجتمع . على الرغم من أن العديد من الفلاسفة افترضوا اختلافهما جذريًا وتعارضهما ، إلا أن الواقعيين لا يعتقدون ذلك . إذا كان السبب هو ببساطة ما يُحدث التغيير ، فإن المعاني يمكن أن تكون سببية أيضًا ، لأننا عادةً ما نتواصل - نتشارك المعنى - من أجل إحداث تغيير ما . أحاول أن أجادلك لأجعلك تغير رأيك بشأن مناهج الجغرافيا . عندما يسألني أحدهم سؤالاً أو يعترض على ما أقوله ، فإنه يُحدث (أي يُسبب) تغييراً في سلوكي من خلال إجباري على الاستجابة له . عندما يقول علماء الاجتماع إن الخطابات "أدائية" ، أو تُنتج تأثيرات ، فهذه مجرد طريقة أخرى للقول إنها سببية أو "فعّالة سببياً".

لقد أجريتُ بالفعل بعض المقارنات بين الواقعية والوضعية ، والإنسانية ، وما بعد البنيوية . ماذا عن تطور مؤثر آخر في البحث الاجتماعي والجغرافي - المناهج النسوية ؟ فيما يتعلق بالنسوية ، هناك نقاط تشابه واختلاف ، وتنوع الفكر النسوي كبير لدرجة أن هناك بعض النسويات الواقعيات . أولاً، **الواقعية هي فلسفة علم اجتماعي ، وليست نظرية اجتماعية** ؛ بشكل عام ، يتعلق الأمر بكيفية تناول العلوم الاجتماعية ، وليس

بنظرية محددة حول ماهية المجتمع ، أو بنظرية تنظر إلى المجتمع من وجهة نظر فئة اجتماعية محددة ، كما تفعل النسوية . ومع ذلك ، تشترك النسوية والواقعية في موقف نقدي تجاه موضوعات دراستهما ؛ إذ تتفقان على أن العلوم الاجتماعية يجب أن تكون نقدية لموضوعات دراستها.

تؤكد العديد من النسويات على الطريقة التي تعكس بها العلوم الاجتماعية الوضع الاجتماعي لمؤلفيها أو باحثيها ، وبالتالي تعكس إلى حد كبير وجهة نظر الطبقة المتوسطة البيضاء . يتفق الواقعيون على أن هذا قد حدث ، وأن هذا قد أدى إلى تقييد وتشويه البحث الاجتماعي . جادلت بعض النسويات بأنه ، على النقيض من ذلك ، يتمتع أعضاء الفئات المضطهدة بموقف متميز، بحيث يمكنهم رؤية أشياء لا يراها الآخرون . بصفتي واقعية ، أود أن أقول إنه مع أن هذا ممكن ، إلا أن أصحاب السلطة قادرون أيضًا على رؤية أمور أخرى لا يراها المسيطرون .

الإشكالية في هذا الوضع لا تقتصر على كون النظرة الذكورية انتقائية ، بل على وجود علاقات هيمنة أبوية أصلًا . تجادل بعض النسويات ، بل وكثيرات من غير النسويات ، بأن المعرفة العلمية الاجتماعية ليست موضوعية ، كما يُفترض غالبًا ، بل ذاتية ، تعكس آراء وقيم الباحث الاجتماعي وموقعه في المجال الاجتماعي . هذا غالبًا ما يكون موقفًا ملتبسًا تمامًا . **أولًا**، كل معرفة ذاتية بالفعل ، بمعنى أنها تتطلب ذواتًا ، كائنات قادرة على التفكير واتخاذ القرارات . هذا شرط أساسي ، وليس عائقًا ، لتطور الموضوعية ، بمعنى التعلّم عن العالم. **ثانيًا**، هناك خلط كبير بين معنيين مختلفين لكلمة "موضوعي" : الموضوعية من حيث القيمة، فالحياد شيء مختلف تمامًا عن الموضوعية من حيث الحقيقة .

على الرغم من أن قيمنا قد تجعلنا أحيانًا نرى فقط ما نريد رؤيته ، إلا أنها لا تفعل ذلك بالضرورة . فمجرد شعورك بأن شيئًا ما جيد أو سيئ ، لا يعني بالضرورة أن لديك رؤية خاطئة (أو غير كافية عمليًا) عنه . قد نعترف أحيانًا بحقائق غير مستساغة . أحيانًا ، قد تُمكّنك الآراء القوية حول ما هو جيد أو سيئ من رؤية أشياء لا يراها الآخرون الأقل اهتمامًا ؛ ويتجلى هذا بالتأكيد في كشف النسوية عن الجندر نفسه . الواقعيون أقرب إلى النسويات وغيرهم ممن دافعوا عن موقف - يُطلق عليه أحيانًا "الموضوعية القوية" - وهو أننا أكثر عرضة لتحقيق معرفة موضوعية أو كافية بالعالم إذا تأملنا مليًا في الفرق الذي يُحدثه موقفنا الذاتي الخاص في نوع المعرفة التي نطورها (هاردينغ، 1991؛ هارواي، 1991).

هل يُسقط الباحثون الظروف الخاصة لوضعهم على من يدرسونهم ؟ كيف يمكنهم محاولة تصحيح ذلك؟ سيساعد التنوع الاجتماعي الأكبر بين الباحثين . وكذلك إدراك أن البحث الاجتماعي ينطوي على علاقة اجتماعية بين الباحث والموضوع للبحث . إن ضرورة وجود بُعد ذاتي لجميع المعارف لا تعني أن المناقشات في البحث الاجتماعي يمكن اختزالها في صدامات بين وجهات نظر ذاتية لا يمكن أن يكون هناك حكم أو حل بينها . ولا يستلزم ذلك موقفًا نسبيًا تكون فيه الحقيقة مجرد نسبة إلى وجهة نظرك . إذا كانت في الحقيقة مناقشات وليست مجرد ألعاب لغوية مختلفة ، فيجب أن تكون مناقشات حول شيء مشترك ؛ لا بد من وجود شيء ما يختلفون عليه ، وهو ما يُصرّ الواقعيون على أنه يتمتع على الأقل ببعض الاستقلال عن تلك الآراء.

إن آراء "التيار الذكوري" خاطئة ليس فقط لأنها ذكورية ، ولكن لأنها تُشوّه صورة العالم ، على سبيل المثال ، من خلال عدم ملاحظة الاختلافات بين الجنسين . من غير المرجح أن ترتكب وجهة نظر نسوية هذا الخطأ تحديدًا ، ولكن على المنوال نفسه ، وبقدر ما تكون الآراء النسوية صحيحة ، فليس ذلك لأن تلك الآراء مرتبطة بالنساء ، ولكن لأنها تُمثل العالم بشكل كافٍ ، على سبيل المثال ، من خلال شرح الاختلافات بين الجنسين . لاحظ أنني أحاول هنا السير في طريق بين طرفين متطرفين ميؤوس منهما : طرف متطرف يتخيل أن المعتقدات يمكن تصنيفها بدقة إلى تلك التي هي ببساطة صحيحة بمعنى مطلق ، وتلك التي

هي ببساطة خاطئة تمامًا ؛ وأخرى (تُسمى النسبية ، وهي حرفيًا "يائسة") تتخيل أننا لا نستطيع أبدًا التمييز بين معتقدات أفضل أو أكثر ملاءمة من معتقدات أخرى .

إن اختلاف العالم عن معرفتنا به يجعل من الصعب إدراك معنى القول بأننا نعرف الحقيقة المطلقة عنه ، لأنه ستكون هناك دائمًا طرق بديلة لوصفه . لكن طبيعة العالم العنيدة ، وفشله في فعل كل ما نتخيله أو نريده أن يفعله ، تشير إلى أنه يمكننا أحيانًا على الأقل التمييز بين أفكار أفضل أو أكثر ملاءمة / حقيقية عنه وأفكار أقل ملاءمة / حقيقية . ربما كنت تأمل في شيء أقوى من الواقعية - ربما مفتاح سحري - يُمكّنك من التمييز بين ما هو "واقعي" و"غير واقعي" - ولكن كما آمل أن أكون قد أوضحت ، فإن الأمور ليست بهذه البساطة . ولكن الوضع ليس ميؤوسًا منه أيضًا .

ما يزال بإمكاننا إحراز تقدم . كثير من الباحثين واقعيون في الممارسة العملية ، على الأقل في بعض الأحيان ، حتى وإن لم يدركوا ذلك . عندما يقلقون بشأن كيفية تصوّر الأمور التي يدرسونها ، لتحديد ما يُعزى وما لا يُعزى إلى تلك الأمور نفسها ؛ عندما يسألون : "ما الذي يُمكّن هذا الشيء (الشخص ، المجموعة ، المؤسسة ، الممارسة ، الهيكل ، إلخ) من القيام بذلك ؟" ؛ عندما يدرسون كيفية عمل آليات أو عمليات التغيير عبر الزمان والمكان دون توقع أن تُنتج بالضرورة انتظامات ؛ عندما يحاولون استنباط فهم الناس لأفعالهم ومواقفهم ، مع الحفاظ على مسافة ناقدة تجاه تلك الفهمات فيما يتعلق بكفايتها ؛ إنهم واقعيون ممارسون . ربما تفعل بعض هذه الأشياء أحيانًا. كواقعي ، أحثك على محاولة القيام بها دائمًا .

ملاحظات

1- ومع ذلك، فإن ما تدعيه "الواقعية الأدبية" ، كما هو الحال في الروايات أو الأفلام "الواقعية" ، هو ما (بشكل سخيف) تدّعي تمثيل العالم مباشرةً "كما هو" ، دون أي وساطة للمفاهيم أو الخطابات أو المخططات الإدراكية.
2- حتى في هذه الحالة ، من غير المرجح أن تُغير الملاحظة وحدها أي شيء . فالتغيير يتطلب تواصلًا وتدخلات عملية.
3- لم تكن الثورة الكمية والتحليل المكاني سوى وضعيين جزئيًا وغير متسقين ، ربما لأن الوضعية غير عملية تمامًا.
4- هذا الموقف النقدي ليس شيئًا يميل الجغرافيون الإنسانيون إلى الرضا عنه.
5- هذه ليست أسبابًا في نموذج انتظام السبب والنتيجة الوضعي ، ولكن هذا النموذج لا يستطيع التمييز بين الانتظامات المجردة أو الارتباطات العرضية والتغيرات التي أحدثها الحدث السببي . لاحظ أيضًا أنه إذا فشلت في إقناعك ، فهذا لا يعني أنني لم أكن أحاول ؛ فتفعيل الآليات السببية (الجدال ، الاستدلال) لا يضمن حدوث نتائج منتظمة.
6- على سبيل المثال، نيو، ديفيز.
7- المعنى الثالث للموضوعي هو "المتعلق بالأشياء" . وهذا يختلف أيضًا عن "الموضوعي" كما هو الحال في "المعرفة الحقيقية" أو "المعرفة الخالية من القيمة."
8- جادل عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو (2000) بشيء مماثل.